ISSN :1112-4377 مجلة المعيار
مجلد: 26 عدد: 7 (رت 69) السنة: 2022

مستويات الناس في فهم القرآن الكريم، نموذج مقترح

People's understanding levels of the Holy Quran. A Proposed Model

د. محمد تمزغين[1]
جامعة الجزائر1
m.timezghine@univ-alger.dz

تاريخ الوصول 2022/01/22 القبول 2022/10/17 النشر على الخط 2022/11/05
Received 22/01/2022 Accepted 17/10/2022 Published online 05/11/2022

ملخص:

انطلق البحث من إشكالية محددة هي هل يلزم جميع الناس تدبر القرآن الكريم وفهمه ؟ وكيف يمكن القيام بهذا الأمر ؟ وقد كان الدافع لذلك وجود طرفين يدعي أحدهما أن القرآن للجميع، وأنه يمكن فهمه لكل الناس، دون اعتبار لمنهج أو خطة، وطرف يظن أن القرآن قد اختص العلماء فقط بفهمه، وأن الناس غير ملزمين بالبحث عن معانيه وإدراك مغازيه. وقد تطرّق البحث إلى تعريف مفاهيم كالتدبر والفهم والتفسير، وإلى إثبات أن المنهج ضرورة في الحياة، ولابد من المنهج في فهم القرآن، ثم قدّم مقترحا لخطة يشترك فيها الناس جميعا في تدبر القرآن، باعتبار التمكن من المنهج ومعرفته، فكان العلماء المفسرون وطلبة العلم الذين يتدربون وعامة الناس الذين يسألون. مع إبراز مواصفات كل مستوى وما يلزمه من مهام في خطة تدبر القرآن الكريم. وتلك هي أبرز نتيجة للبحث بأن جمع بين تلك الأصناف في خطة واحدة، واتخذ موقفا وسطا؛ يعطي للقرآن منزلته ويحترم للعلم والمنهج مكانته.

الكلمات المفتاحية: فهم القرآن، منهج، تدبر، تفسير، مستويات الناس

Abstract:

The search started from a specific problem, which is: Do all people have to understand the holy Quran? That is because there are two different parties on this issue; one of whom claims that the Quran can be understood by all people, without regard to a method, and the second party thinks that the Quran is only for scholars to understand, and that people are not authorized to try to understand it. The research deal with defining concepts such as contemplation, understanding and interpretation, and proving that the method is necessity in life, and it must employed in understanding the Qur'an/ The research suggest a model for all to understand the holy Quran, by Highlighting the specifications of each level and the necessary requirements. The most important result of the research that it combines these levels in one plan, and it takes a proper position that gives the Quran its suitable role, and respects science methods.

Keywords: understand the Quran; method; contemplation; interpretation; people levels.

[1] المؤلف المراسل: **د. محمد تمزغين** البريد الالكتروني: **abouelamine08@gmail.com**

1 . مقدمة:

القرآن الكريم كتاب الوحي الخاتم، أنزله المولى تعالى تبيانا لكل شيء، وفصّله بلسان عربي مبين، فكان ذلك سببا لقرب الفهم والتدبر، وحافزا لأهل العلم أن يتسابقوا في الكشف عن معانيه، وأن يحرصوا على بيانه، تطبيقا لقوله تعالى: [أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا] [ص:29].

إلا أن العصر الحاضر، كما فسح مجالات خصبة للكشف عن الهدي القرآني مِن خلال تطوير مناهج النظر والتفكر، كمنهج التفسير الموضوعي ومنهج التفسير المقاصدي ومنهج التفسير السنني... إلا أنه قد شهد بعض التجاوزات التي أعاقت تطوّر المسيرة العلمية المباركة في التعامل مع القرآن الكريم.

ومن تلك التجاوزات ما تعلق بالتعامل مع موضوع "فهم القرآن الكريم"، بين تطرّف إلى جعل القرآن للخاصة وألا حظّ لعامة الناس مِن فهم القرآن، وإنما مهمتهم التلاوة والحفظ، ويأتي العمل في الدرجة الثالثة مِن الأولوية، دون محاولة الفهم. وبين تطرّف آخر نحو تعميم القرآن للجميع، وأنّ فهمه متأت لكل امرء، فالناس سواسية في فهم القرآن الكريم، فأي مدخل إلى القرآن الكريم يمكُن أن يوصل إلى الكشف عن معانيه ومقاصده.

ويحاول هذا المقال أن يجد مخرجا في التعامل مع هذا الموضوع، بما يتجاوز قصور تلك المواقف وآثارها، بناء على إشكالية محددة هي: كيف يمكن الجمع بين لزوم التدبر القرآن تحقيقا لمقاصده، وبين تجاوز الخطأ في فهمه؟

وأبرز هدف للمقال هو محاولة تقديم نموذج مقترح تم استمداده وتطويره من خلال جهود العلماء السابقين والمعاصرين في تناول الموضوع، فكان أقرب إلى التوصيف والتجميع مع نقد وتقويم وتوجيه. نموذج يرعى الاتساق مع الموضوع ومع واقع التعامل معه دون ادعاء أنه البديل الوحيد في الموضوع.

وللإجابة عن هذه الإشكالية وتحقيق أهداف المقال تم استعمال المنهجين الآتيين: المنهج التحليلي في تناول ما يتعلق بالفهم والتدبر والتفسير وأسسه وتحليل جوانب المنهج وأبعاد ذلك، مع توصيف النموذج المقترح، كما تم اعتماد المنهج النقدي في إيراد الاعتراضات على النموذج المقترح وبيان أبعاد ذلك الواقعية.

وسيتناول المقالُ الموضوعَ في محورين: الأول عن مدى لزوم المنهج في فهم القرآن الكريم، والثاني عن تصنيف الناس في تعاملهم مع فهم القرآن. عسى الله تعالى أن يوفِّق لتقديم أجوبة مناسبة، وأن يدفع المسلمين قدما نحو الرقي والكمال.

2 . مدى لزوم المنهج في فهم القرآن الكريم

ما مدى لزوم المنهج في التعامل مع القرآن تدبرا وفهماً؟ هذا ما يحاول هذا المحور الإجابة عنه، ببيان قيمة المنهج والعلاقة بين الفهم والتفسير ومناقشة قضايا إشكالية في فهم القرآن والمنهج.

2. 1. قيمة المنهج في فهم كلام الله تعالى:

وما من شيء في الحياة إلا وله طريقة يتم بها ومنهج يتم مِن خلاله: انطلاقا من أسس، وتتبعا لخطوات، وإعمالا لقواعد، وتقصيدا نحو نتائج[1].

[1] أخذت كلمة "المنهج" لغة من النهج وهو الطريق. فالمنهج هو الطريقة التي يتم بها فعل ما أو يحدث. وأساس المنهج في الاصطلاح ثلاثة أمور: مفاهيم وخطوات وضوابط. انظر: ابن فارس، أحمد، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، دط، 1979م، ج5، ص36، مادة نهج. بدوي، عبد الرحمن، مناهج البحث العلمي،

وتكمن أهمية المنهج في أنه يضبط طريقة الوصول إلى النتيجة، فيشكل معيارا لكشف صواب المسير من خطئه، كما أنه ضابط عام للنتائج فيشكل معيارا آخر لمعرفة صواب النتائج من خطئها، فإذا خلا الإنسان من المنهج فإنه لن يعرف مدى تقدمه في الوصول إلى مبتغاه، كما أنه لن يعرف صواب طريقته من خطئها، وبذلك فسيمضي بلا هادي في السبيل، ولا معيار في النهاية.

كما تظهر قيمة المنهج في حال اختلاف الناس فيما بينهم، فكيف نعرف المصيب من المخطئ؟ والراجح والأرجح؟

وإذا تعاطى الإنسان مع جوانب الحياة بمنهج فسيصل إلى النتيجة، وبالعكس فكلما تعامل مع الأشياء بلا منهج كان حقيقا بالقصور والخطأ، إن لم يكن المآلُ المضرةَ والهلاكَ.

إذا فقيمة المنهج تكمن في كونه معيارا للصواب من الخطأ في طريقة التعامل وفي النتائج، ومرجعا وحَكَما حين الاختلاف.

وهذا الأمر حاصل في التعامل مع القرآن أيضا؛ ففهم أي إنسان لآية من آيات القرآن الكريم يمكن أن يستفسر عنه فيُقَال: هل هذا الفهم صحيح أو خطأ؟ لأنه ليس كل فهم للقرآن فهو صحيح! وهنا تكمن الحاجة إلى معيار به يعرف الصواب من الخطأ في فهم آيات القرآن الكريم.

وإذا فَهِم بعضهم من القرآن معنى وخالفوا فيه آخرين، فيستفسر حينها أيضا: هل يوجد مرجع يُحتَكم إليه في معرفة المصيب من المخطئ؟ وإلا فسيبقى كل طرف يدّعي أن ما توصّل إليه هو الصواب، وفهمَ غيره خطأ أو أقل من فهمه. فما هو المعيار للتقويم؟ وما هو الحكم للاختلاف؟

والجواب عن تلك الأسئلة إنما يكون بوجود مقياس تقاس إليه طريقة الفهم ومداخله وخطواته، ومعيار تحتكم إليه النتائج.

وقد جاء ذكر حديثين للمصطفىε في هذا الصدد، وهما: "من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار"[1]، و" من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ"[2]. وإن كانت درجة الحديثين ضعفية، إلا أن المعنى معقول، فركزت الرواية الأولى على القول في القرآن بغير علم، والقول بغير علم أي بغير قواعد وأسس وضوابط، كما ركزت الرواية الثانية على دوام الإصابة، فقد يصيب الإنسان المسلم في فهم المعنى، لكنه محتاج دوما إلى معيار للتقويم؛ فلن يصيب كل مرة، لعدم بنائه قوله على العلم.

والخلاصة، أن فهم القرآن الكريم أيضا خاضع لنفس القاعدة وهي الحاجة إلى المعيار للتقويم والحَكَم في الاختلاف، فينتج عنه السلامة والثقة في النتيجة المتوصَّل إليها، ويعطي الضمان لاستمرار الصواب في فهم آيات القرآن الكريم. والمعيار في خطوات النظر والفهم والمعيار في النتائج هو المنهج.

وكالة المطبوعات، الكويت، ط3، 1977م، ص3. الدسوقي، محمود إبراهيم، منهج البحث في العلوم الإسلامية، دن، دم، ط1، 1984م، ص43. السيد أحمد، عزمي طه، مناهج البحث الحديث، جامعة آل البيت، الأردن، 2008م، ص37.

[1] رواه أبو داود والترمذي والبزار وقال: "وَهَذَا الْحَدِيثُ لا نَعْلَمُهُ يُرْوَى عَن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيه وَسَلَّم إلاَّ مِن هَذَا الْوَجْهِ بهذا الإسناد"، تفرد به عبد الأعلى بن عامر الثعلبي، ليّنه النقاد. وحسن الترمذي الحديث، بينما ضعفه الألباني. ينظر: جامع الترمذي، أبواب تفسير القرآن، باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه، رقم2950، عن ابن عباس، تح بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998 م، 49/5.

[2] يقول ابن كثير: "روى هذا الحديث أبو داود، والترمذي، والنسائي من حديث سهيل بن أبي حزم القُطعي، وقال الترمذي: غريب، وقد تكلم بعض أهل العلم في سهيل". **تفسير القرآن العظيم**، ج1، ص11.

بل يصبح أمرُ المنهج مُهِمًّا حين المقارنة بين اتخاذ الناس للمنهج في تعاملهم مع شؤون الحياة حرصا على تجاوز الخطأ بمعرفة الصواب وحسن التعامل معها، بينما كلام ربنا لا يتم التعامل مع فهمه إلا بشيء مِن العفويّة والسذاجة! والحرص على تجاوز الخطأ في فهم القرآن أولى لأن الخطأ فيه ليس كالخطأ في غيره!

فإذا ظهرت قيمة المنهج في فهم القرآن الكريم، فما هو هذا المنهج؟ أهو منهج التفسير؛ مِن العودة إلى آيات القرآن وأحاديث المصطفىε، واعتماد اللغة وأسباب النزول، ومعرفة الناسخ والمنسوخ، والاستناد إلى اجتهاد المفسرين، والانسجام مع العقيدة ومقاصد الشريعة، وغيرها من القواعد ؟

أم تختلف عملية الفهم والتدبر عن عملية التفسير، وأنه لابد من تحديد المنهج حينها؟

2. 2. العلاقة بين الفهم والتفسير:

- الفهم: يعرِّف ابن فارس الفهم لغة بأنه "علم الشيء"[1]. وعرّفه الجرجاني فقال: "الفهم: تصور المعنى من لفظ المخاطب"[2]
- التفسير: يعرِّف الراغب التفسير لغة فقال: "الفسر إظهار المعنى المعقول"[3]. ويطلق التفسير على عملية الكشف عن الدلالة والبيان عن المعنى[4].
- العلاقة بين الفهم والتفسير:

يمكن ملاحظة العلاقة بين الفهم والتفسير في الجوانب الآتية:

الفهم هو الاستيعاب والإدراك، وهو أقرب إلى نتيجة التفكير منه إلى عملية التفكير، فيقال فَهِم الموضوع إذا أدركه، وبذلك تتفاوت مستويات الفهم؛ ففيه فهم المعنى العام للخطاب، وفيه التعمق في المعاني والمقاصد، إلى الوصول إلى تمام المقصود.

كما أن الفهم يمكن أن يصيب ويمكن أن يخطئ، فهو نتيجة ولكن ما مدى صحة النتيجة؟

بينما التفسير هو الكشف عن المقصود، فهي أقرب إلى عملية الوصول إلى النتيجة، والتحقق من دقة النتيجة، فلا يسمى التفسير كشفا ما بقي الغموض، ولا يسمى التفسير بيانا ما بقي الاشتباه.

فيمكن القول: إن الفرق بين الفهم والتفسير هو الفرق بين النتيجة وطريقة التوصل إلى النتيجة السليمة. لذلك فتكون العلاقة بين الفهم والتفسير علاقة الطريقة بمعيارها، وعلاقة النتيجة بحَكَمِها.

فالتفسير ضابط للفهم، وذلك باعتبارات عدة، أولها أن التفسير أخص من الفهم، كون الفهم مطلق عملية التوصل إلى المقصود والتفسير هو العملية المناسبة للوصول، فتصبح العملية المناسبة للكشف عن المقصود هي الضابط لأي طريقة للتوصل إليه.

---

[1] ابن فارس، أحمد، **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، (بيروت: دار الفكر، دط، 1979م، ج1، ص457، مادة فهم. وانظر: ابن منظور، محمد بن مكرم، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، ط1، 1956م، ج12، ص459، مادة فهم.

[2] الجرجاني، علي بن محمد الشريف، **التعريفات**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1983م، ص169.

[3] الأصفهاني، الحسين بن محمد الراغب، **المفردات في غريب القرآن**، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، لبنان، دت، دط، ص380.

[4] انظر: الكافيجي، محمد بن سليمان، **التيسير في قواعد علم التفسير**، تحقيق ناصر بن محمد المطرودي، دار القلم، دمشق، ط1، 1410هـ، ص124. الصابوني، محمد علي، **التبيان في علوم القرآن**، دار الكتب، دم، ط1، 1985م، ص63.

وثانيها أن التفسير عملية للكشف عن الفهم السليم، والفهم هو نتيجة، فكل ما بُنِيَ على عملية إنتاج الفهم كان سليما، بينما الخروجُ عن عملية الكشف لا يضمن للنتيجة السلامةَ. والاعتبار الثالث أن التفسير هو النهايات والنتائج السليمة للفهم، فتصبح أي نتيجة غير تلك النتائج خطأ.

وإذا اختلف الفهم عن التفسير فإن سلامة الفهم إنما تكون بمنهج التفسير.

ويطرح سؤال في هذا الصدد جوهري، وهو: هل ينضبط الفهم بمنهج التفسير ابتداء ؟ أي في منطلق التفهم ؟ أو انتهاء بالنظر إلى النتيجة ؟ لعل هذا هو أبرز إشكال في موضوع العلاقة بين الفهم والتفسير.

فما مدى لزوم الانضباط بالتفسير في الفهم ابتداء؟! وما مدى لزوم انضباط الفهم بضوابط التفسير انتهاء ؟ لعل من خلال ما ذكر أعلاه يتضح لزوم ذلك ابتداء وانتهاء.

2. 3. اعتراضات على لزوم المنهج لفهم القرآن الكريم:

يعترض ما ذكر مِن لزوم انضباط الفهم بقواعد التفسير وضوابطه اعتراضات عدة يمكن إيرادها فيما يأتي:

2. 3. 1. لزوم المنهج في الفهم يعارض بيانية القرآن الكريم: فقد أنزل القرآن الكريم للجميع، وقد وَصَف القرآنُ نفسَه بأنه بيّن ومبين. فإذا كان بيّنا صح لكل إنسان أن يفهمه، فلا حاجة لضوابط ومنهج.

وهذا يستدعي الوقوف على معنى بيانية القرآن الكريم، ومدى هذا التعارض!

فقد وُصِف القرآن بأنه مبين، فقال تعالى:[الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ] [يوسف:1]، ووُصِفَت آياته بأنها بينات، فقال المولى عز وجل:[هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ] [الحديد: 9]

وكلمة "مبين" في القرآن تُحمَل على معنيين: معنى الفعل اللازم "بان"، ومعنى الفعل المتعدي "أبان"[1]. وحمل الآيات على معنى التبيين، وتمام البيان، يتعارض مع آيات أخرى مثل قوله تعالى: {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [النحل:44]، وقوله تعالى: {وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [النحل:64]، فإذا كان القرآن بَيِّنًا بنفسه فلا حاجة إلى الرسولε إذاً ليبيِّن ! ولا نسبة البيان إليه!

ومفتاح هذا التعارض الظاهري بين آيات القرآن ذاته، هو في دلالة كلمة "البيان"، فالقرآن بيّن لمن اجتهد بأدوات العلم وضوابطه، ومِن أسس العلم في فهم الوحي اتباع صاحب الوحيε، فمن اجتهد بالمنهج، فإنه سيجد معانيَه حاضرةً غير مُبْهَمة.

فالقرآن إذاً بيّن مِن ناحية أي لا إغلاق فيه[2]، ولكنّ هذا البيان إنما يكون بالتفسير مِن ناحية أخرى. فليس معنى أنه بيّن أنه غير محتاج إلى تفسير بضوابطه[3].

---

[1] انظر: ابن عاشور، محمد الطاهر، **التحرير والتنوير**، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط1، 1420هـ / 2000م، ج14، ص10.

[2] إلا ما استأثر الله بعمله، أي بعلم كيفيته وزمانه كالساعة، أو الحكمة منه مثل الأحرف المقطعة، فذلك مما يفهم المسلم منه معناه دون تفاصيله وكيفياته، فيكل تأويله إلى الله تعالى يوم يأتي تأويله.

[3] ومن الأمثلة الشبيهة بذلك: بعض المعادلات في الرياضيات، فهي في أصلها لها حل، ومنهج حلها سهل قريب، ولكن عرضها على الناس لأجل أن يقدموا حلها مختلف، فكثير مِن الناس لا يقدر على حلها، لا لاستحالة ذلك بل لمستوى الناس ومهاراتهم في هذا الشأن.

ويبقى الأمر بالنسبة لقوله تعالى: [كذلك يَرِد في القرآن قوله تعالى:[لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ] [القيامة:16-19]، وتدل بوضوح على أن البيان موكول إلى الله تعالى، فكيف يكون ذلك؟ واجاوب أن الآية تتناول كفالة الله تعالى لعبده بحفظ القرآن وطريقة تأليفه وقراءته وبيانه للناس[1]. أما كيف يبين ذلك؟ فهو يبيَّن بالقرآن، ويبيَّن بالسنة[2]. سواء بيان المعنى أو بيان التطبيق.

وقد يقصد به الإظهار[3]، أي إظهارُ القرآن الكريم، فالله يحفظ القرآن ويُظْهِرُه للعالمين، وهو معنى وارد أيضاً.

2. 3. 2. ما لا يسع جهله من القرآن يعارض الاحتكام لمنهج التفسير:

إذا كان القرآن على أربعة أوجه كما يقول ابن عباسψ: "تفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير تفسّره العرب، وتفسير تفسِّره العلماء، ومتشابه لا يعلمه إلاّ الله تعالى، فمن ادعى علمه سوى الله عزَّ وجلَّ فهو كاذب"[4] فكيف لا يسع أحدا جهل تفسيره وهو بحاجة إلى تفسير؟

يجيب الطبري فيقول: "هذا الوجهُ الرابع الذي ذكره ابن عباس مِنْ أنّ أحدًا لاَ يُعذر بجهالته، معنى غيرُ الإبانة عن وُجوه مَطالب تأويله، وإنما هو خبرٌ عن أنّ مِن تأويله ما لاَ يجوز لأحد الجهل به"[5].

ويقول الماوردي بعبارة أوضح: "هذا التقسيم الذي ذكره ابن عباس صحيح، غير أن ما لا يُعذَر أحد بجهالته داخل في جملة ما يعلمه العلماء؛ مِن الرجوع إليهم في تأويله، وإنما يختلف القسمان في فرض العلم به، فما لا يُعْذَر أحد بجهله يكون فرض العلم به على الأعيان، وما يختص بالعلماء يكون فرض العلم به على الكفاية"[6]. فالإبانة والفهم شيء، ولزوم الفهم شيء آخر

---

[1] انظر: قطب، سيد، **في ظلال القرآن**، ط17، دار الشروق، القاهرة، 1995م ج6، ص3370.

[2] وهو قول ابن عباس. قال ابن عطية في تفسير الآية: "وقال كثير من المتأولين معناه أن تبينه أنت". ابن عطية، عبد الحق بن غالب، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، تحقيق عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1993م، ج5، ص377. ويكون المعنى بيان الله لرسوله والرسول يبين للأمة، ويقول ابن كثير: "بعد حفظه وتلاوته نبينه لك ونوضحه، ونلهمك معناه على ما أردنا وشرعنا". ابن كثير، إسماعيل بن عمر، **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، المدنية، ط2، 1420هـ/1999م، ج8، ص278. ويقول البقاعي: "بيان ألفاظه ومعانيه لك ... ولغيرك على لسانك وعلى ألسنة العلماء من أمتك". البقاعي، إبراهيم بن عمر، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، تحقيق عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، دط، 1415هـ/1995م، ج8، ص378.

[3] يقول الآلوسي:"يجوز أن يراد بالبيان الإظهار لا بيان المجمل، وقد صح مِن رواية الشيخين وجماعة عن الحبر أنه قال في ذلك:(ثم ان علينا أن نبينه بلسانك وفي لفظ: علينا أن تقرأه)، ويؤيد ذلك أن المراد بيان جميع القرآن والمجمل بعضه". الآلوسي، محمود شكري، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دط، دت، ج29، ص142.

[4] للتوسع انظر: الطيار، مساعد، **مقالات في علوم القرآن وأصول التفسير**، مركز تفسير للدراسات القرآنية، الرياض، دط، 1435هـ، ص161.

[5] الطبري، محمد بن جرير، **جامع البيان في تأويل القرآن**، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، لبنان، ط1، 1420هـ/2000م، ج1، ص75-76

[6] الماوردي، علي بن محمد، **النكت والعيون**، تحقيق السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت، دت، دط، ج1، ص36-37.

فقد كان تصنيف ابن عباس هنا للتفسير جامعا لما يلزم معرفته ولطريق الوصول إلى معرفته، مع تداخل في الأصناف[1]، وهو ما حدا بالطبري أن يقترح تقسيمًا آخر يمحِّضه لطريق معرفة التفسير، وسار على نهجه الماوردي.

فصنف التفسير إلى صنف لا يُعرَف إلا ببيان الرسول أو العلماء، وصنف لا يعلم تأويله إلا الله، وصنف يُعْلَم باللسان العربي[2]. فصار التصنيف للتفسير باعتبار طريقة التوصل إلى الفهم. وهذا أنسب لوحدة الاعتبار.

فالأحسن في تناول مسألة بيانية القرآن الكريم الفصل بين لزوم المعرفة وبين طريق الوصول إلى المعرفة، فالفهم هو المقصود، أما كيف يتم ذلك فيكون بدرجات متفاوتة بين من يسأل، وبين من يُعمِل عقله ويتدبر، ومَن يكشف عن المعاني ويبين ويجتهد.

2. 3. 3. عدم حاجة محكم القرآن للتفسير:

فالقرآن محكم ومتشابه؛ فما اتضح معناه فهو المحكم ولا حاجة إلى ضوابط وقواعد ومنهج فيه، وما تشابه فمرده إلى أهل التفسير.

والأخذ بقسمة القرآن إلى محكم ومتشابه أمر مهم، ويتسق مع طبيعة الخطاب القرآني، ولكن الإشكال في هذه القسمة هو في كيفية التمييز بين المحكم والمتشابه، فلو تُرِك تمييز ذلك دون ضوابط لاشتط الكثيرون، وظن بعضهم أن هذه الآية محكمة وهي مِن المتشابه، والعكس! فاستغنى عن التفسير عند الحاجة، فوقع في الخطأ.

فالحل هو العودة إلى العلماء أيضا في ضبط ذلك، واختصار الطريق على الناس وتجنب خطئهم. وبالتالي فهو أيضا عودة إلى منهج التفسير، ولا يعني هذا أن القرآن معظمه متشابه أو إن المحكم يحتاج إلى تفسير، فالقرآن الكريم بأسلوبه السهل الممتنع يفسح المجال لكل الناس أن يرتشفوا مِن كنوزه، مِن خلال المعاني الظاهرة للآيات، وفيها الكثير مما يمكن أن يُدْرِكَه العوام فضلا عن أهل العلم.

يبقى أن على العلماء نشر معاني القرآن، حتى لا يقع الخطأ في فهم آيات القرآن، واعتقاد إحكام آية مع أنها من المتشابه؛ تشابها يحتاج إلى إزالة غموضها، أو تشابها يحتاج إلى الجمع بين النصوص لإزالة الاشتباه عليها. والجمع بين النصوص من منهج التفسير، وليس متيسرا لكل الناس.

إن الإشكال كله منصب حول إلزام الناس بفهم القرآن الكريم بدعوى بيانيته لكل الناس، فيبدأ الإنسان بمحاولة الفهم بغير هدى ولا سلطان مبين، فتكون النتيجة أقرب إلى الخطأ.

---

[1] أورد عبد الله الجديع التصنيف نفسه، وفسّر ما لا يعذر أحد بجهالته بقوله:" المراد به ما هو بيّن بنفسه، يفهمه التالي دون الحاجة إلى تفسير". **المقدمات الأساسية في علوم القرآن**، دار الحكمة، لندن، دط، 2003م، ص280-281. ولكن ما يُعَكِّر على هذا المعنى هو وصف ذلك بما لا يُعذَر أحد بجهالته، والبيّن بنفسه لا يحتاج لأن يوصف بعدم عذر جاهله، إنما الموصوف بذلك هو الحكم الفقهي والعقدي اللازم، فيخرج من دائرة منهج تحقيق الفهم إلى دائرة لزوم الفهم.

[2] انظر: **تفسير الطبري**، ج1، ص74-75. والماوردي، **النكت والعيون**، ج1، ص38.

2. 3. 4. دعوة القرآن إلى تدبره تتعارض واعتماد منهج التفسير:

وقد حث القرآن الكريم على تدبره، فقال تعالى: (كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ) [ص:29]. فالآية تُعَلِّل إنزال القرآن لأجل أن يتدبره المسلم، فكيف أداء هذا اللازم، مع إشكال عدم وضوح كل الآيات، ولزوم العودة إلى العلماء؟

يلزم للإجابة عن هذا الاعتراض النظرُ في مفهوم التدبر، وقد عرَّف تدبر الشيء بأنه "التفكر والتأمل فيه، بما يفضي بصاحبه إلى النظر في عواقبه"[1]. وتدبر الآيات: "هو التفكر والتأمل الذي يؤدي إلى معرفة ما يَدْبر ظاهرها، من المعاني الفائقة والتأويلات اللائقة"[2].

ويمكن إعطاء تعريف للتدبر بأنه: **عملية التفكير والنظر المستمر في أمر مِن الأمور، لمعرفة حقيقته أو مآلاته وعواقبه**[3].

وفي تعريف التدبر يُلاحظ جانبان في المفهوم، أحدهما جانب مرتبط بالفهم، وآخر مرتبط بالنظر في العواقب[4]، وكلا الجانبين مرتبط بالمجال المعرفي، والذي يخضع لما يخضع له الفكر مِن ضوابط ومنهج، إلا أن الجانب الثاني يشترك فيه النظرُ والتفكرُ مع التجربة والعمل، فالعمل يورث مَزِيدَ نظر في عواقب الأمر.

وهو ما أدى ببعض أهل العلم إلى أن يدرجوا في التدبر معنى التأثر بالآيات، ومعنى العمل بالآيات[5]. إلا أن هذا الجانب لا ينفك محتاجا إلى الفهم، إذ كيف يتأثر مَن لم يفهم! وكيف يعمل مَن لم يستوعب!

وإذا كان هذا هو معنى القرآن الكريم، فهل يلزم التدبرُ جميعَ الناس؟ وردت في ذلك نصوص للعلماء كثيرة، فيقول القرطبي: "لِيَدَّبَّرُوٓاْ: وهذا دليل على وجوب معرفة معاني القرآن"[6]. ويقول ابن كثير: "يقول تعالى آمرا بتدبر القرآن وتفهمه، وناهيا عن الإعراض عنه، فقال:(أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها)"[7].

ويقول الشنقيطي: "أما كون تدبر آياته، مِن حكم إنزاله: فقد أشار إليه في بعض الآيات، بالتحضيض على تدبره، وتوبيخ من لم يتدبره، كقوله تعالى:{أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ}. وقوله تعالى:{أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفاً كَثِيراً} وقوله تعالى:{أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ}"[1].

---

[1] أبو حيان، محمد بن يوسف، **البحر المحيط**، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1422هـ/ 2001م، ج7، ص379.

[2] انظر: الزمخشري، محمود بن عمر، **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دط، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دت، ج4، ص90. الآلوسي، **روح المعاني**، ج12، ص181.

[3] انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج23، ص252.

[4] يشير الشعراوي إلى أن أول مراحل التدبر هي إعمال العقل في أمر لينظر في دليل صدقه، وبعدها مرحلة النظر في أدبار الشيء وأعقابه والنظر في العواقب التي تحدث منه، وهي مرحلة بعد التفكر. **تفسير الشعراوي**، مطابع أخبار اليوم، مصر، دط، دت، ج4، ص2476-2479. وانظر: موجاري، جميلة، **دور التدبر في فهم المقصود من الخطاب القرآني**، مجلة المعيار، مج 18، ع35، 2016، ص6.

[5] مثل: يوسف القرضاوي، في كتابه: **كيف نتعامل مع القرآن الكريم**، مؤسسة الرسالة، لبنان، دط، دت، ص346.

[6] القرطبي، محمد بن أحمد، **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، دط، 2003م، ج15، ص192.

[7] ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، 229/4.

وهنا ينبغي النظر في المقصود بهذا الوجوب: أكل الناس أم بعضهم؟ الفهم والاعتبار أم التأثر؟ الإقبال على تفهم القرآن أو محاولة الفهم بلا منهج؟

لعل مِن أحسن الأجوبة في هذا الصدد القول: إن المقصود هو الإقبال على معرفة وفهم معاني القرآن، والنظر في آثاره وعواقبه اهتداء وإعراضا، والتأثر به. وهو أمر متفق عليه، لأن ذلك أمر أساس في التعامل مع القرآن الكريم، وهذا هو ما يلزم التركيز عليه بكل قوة، حتى لا يكون القرآن مهجورا، فيغيب تأثيره وينقص هديه. أما كيف يُفهم القرآن الكريم؟ فهو أمر راجع إلى المنهج ومستويات الناس فيه.

والخلاصة: أن القرآن بحاجة إلى منهج التفسير لفهمه، وهذا لا يتعارض وبيانية القرآن الكريم؛ لأنها بيانية ضد الإغلاق لا ضد الغموض، ولا مع ما لا يسع جهله من القرآن؛ لأن الناس بحاجة فيه إلى العلماء أيضا، ولا مع عدم حاجة المحكم للتفسير؛ لأن تحديد المحكم راجع إلى أهل العلم، ولا مع دعوة القرآن إلى تدبره؛ لأن التدبر إقبال على معاني القرآن، وأما كيفية ذلك فتعود إلى ضابط المنهج.

2. 3. 5. جعل التفسير ضابطا لنتائج الفهم أنسب من الإلزام به كل الناس ابتداء وانتهاء:

فإلزام الناس بذلك ابتداء هو صد لأي تفكير في الفهم ومحاولة، وهو بذلك أقرب إلى جعل القرآن للعلماء فقط، وعلى غيرهم تلقي المعنى، كما يتلقى الناس فهم المعاني العويصة والمعقدة. والقرآن يغلب عليه يسر الفهم.

ولعل الجواب يكمن في التفكير في الفهم نفسه. فمحاولة الفهم هي عملية تفكير، وهذه العملية لا تخلو من النظر في الآية، والوقوف على المعنى اللغوي، ومعرفة سياق الآيات سباقا ولحاقا، وسياق النزول، ومحاولة المقارنة مع الآيات في نفس الموضوع؛ إزالة للتعارض بينها، وتجميعا للمعاني المشتركة، إضافة إلى استحضار معارف الإنسان ونتائج العلوم في عصره... مع ملاحظة تعدد الدلالات وترجيح أي منها أنسب للآية ومعناها وسياقها وتلك المعارف.

ولو تلاحظ هذه الخطوات فإنها نفسها خطوات منهج التفسير، ولكن! مع بون شاسع. حيث يقوم المفسر بتلك الخطوات بإتقان، ويستحضر الضوابط والخطوات والإجراءات المناسبة، مع المقارنة مع السنة النبوية وما توافقت عليه الأمة في المعاني والأحكام... فالفرق في مستوى التناول للقواعد والمنهج وليس في شيء آخر.

وإذا كان الأمر كذلك، فإن الخلل قد يصيب ذلك من جهتين اثنتين:

- الجهة الأولى: هي في قواعد المنهج وخطواته وضوابطه، فهل هي نفسها؟ أم هي غير تلك الضوابط التي أسس لها المصطفى وتم بها كمال الدين وتوافقت عليه الأمة، مما يفتح المجال على مصراعيه لكل من يريد أن يفهم القرآن بالطريقة التي يشاء وبالنتائج التي يتوصل إليها. فهذا ضبط للمنهج وانضباط به أو خروج عنه وعدم اعتماده واختيار طرق ومناهج أخرى!!
- الجهة الثانية: هي في إعمال ذلك المنهج وتلك القواعد بعد الإقرار بها، وهنا ينتقل الحديث إلى مدى إتقان ذلك. وكثرة الأخطاء الواردة في فهم كلام الله قديما وحديثا هي أكبر مؤشر لتوجيه الفهم نحو الانضباط بقواعد التفسير ابتداء ودون الاكتفاء بذلك انتهاء.

---

[1] الشنقيطي، محمد الأمين، **أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن**، دار الفكر، بيروت، دط، 1415هـ/ 1995م، ج6، ص345.

وإلا، فما يكفي أهل العلم أن يُصبح عملهم هو تطويق تلك الأخطاء وتتبعها، فيقال لعموم الناس اجتهدوا، ثم يقال لأهل العلم صوِّبوا ولاحقوا الأخطاء! ومتى سيشتغل أهل العلم بتحقيق غوامض العلم، ويكشفوا عن وجوه المعاني التي بها الهداية في عصرنا ؟

ومع أن تدبر القرآن الكريم لازم بدلالة الآيات القرآنية، وهو السبيل لتحقيق مقاصد القرآن، فكيف يمكن الجمع بين ذلك وبين لزوم المنهج للفهم ابتداء أو انتهاء أو هما معا؟ وهل يمكن إيجاد حل لا يوصد به الباب أمام الناس لفهم القرآن، ولا يفتح الباب على مصراعيه بلا منهج ولا ضابط ولا معيار؟!

لعل النموذج المقترح – المستنتج من جهود كثير من أهل الاختصاص من المفسرين وعلماء القرآن- سيجيب عن هذا السؤال، باعتبار أن تدبر القرآن واجبا جماعيا، يقوم به كل مستوى من مستويات الناس بما يناسبه.

3. تصنيف الناس في تعاملهم مع فهم القرآن، نموذج مقترح:

انطلاقا مِن التعامل مع منهج فهم القرآن الكريم، بين مَن يعرف هذا المنهج ومَن لا يعرفه، وبين مَن يتقنه وبين مَن يعرفه فقط؛ يمكن تقسيم الناس مستويات في فهم كلام الله العزيز: عامة الناس وطلبة العلم والعلماء، فالطالب يعرف السبيل ولكنّ نُقْصَ إتقانه هو الذي يجعل الخطأ واردا، فبقدر إتقانه للمنهج يضمن سلامة النتائج. والعالم يَعْرِف المنهج ويتقنه، وهذا هو المؤهل له لأن يفسر القرآن ويتفهمه مباشرة. وإذا لم يكن الإنسان المسلم ممن يعرف المنهج، ولا ممن يتقنه؛ فالأصل فيه أن يترقى إلى مرتبة أحد هؤلاء، أو أن يسأل، وشفاء العي السؤال.

وقبل تناول المستويات وما يلزم كل مستوى منها لفهم القرآن الكريم، يحسن التعرف على أهم أسس المنهج.

3 .1. أسس المنهج:

لمنهج فهم القرآن الكريم أسس مهمة وقواعد ضابطة وخطوات هادية، يمكن الوقوف عند أهمها كالآتي:

(1) آيات القرآن: القرآن كُلٌّ متكامل، ولا تناقض بين آياته، لذلك فلابد مِن الموافقة بين فهم آية من الآيات، وبين ما في آيات القرآن الكريم، وفي هذا الجانب أمور:

أ- العقيدة: وهي مما ثبت بآيات كثيرة قطعية الثبوت والدلالة، فمعارضة الفهم للعقيدة هو معارضة لنصوص القرآن نفسها.

ب- مقاصد القرآن: وهي مما ثبت أيضا بمجموع النصوص كليات قطعية، فمعارضتها أيضا معارضة لنصوص الوحي.

ج- آيات الموضوع الواحد: ويسمى تفسير القرآن بالقرآن، ويندرج فيه:

- التفسير الموضوعي، وأعلى درجاته تفسير القرآن للقرآن.
- الناسخ والمنسوخ: وذلك بمعرفة المتقدم مِن الآيات نزولا مِن المتأخر.
- القراءات: يلزم الاطلاع عليها؛ كأنها آيات أخرى، ولأن في اختلاف القراءات تفسيرا لبعضها.

(2) السنة النبوية: فالسنة النبوية أحسن ما شرح القرآن وطبّقه، والأصل ألا يكون ثمة تناقض بين فهم آية وما ورد مِن السنة. ويندرج تحت ذلك جانبان:

- الحديث المفسر: وهو الحديث الذي فسّر الآية، فوجب اعتماده، لأنه كالتنصيص على المعنى.

- عموم السنة: ويعتبر هذا ضابطا في فهم الآية، ويتحقق ذلك بالاطلاع الواسع على السنة.

(3) أسباب النزول: فالآيات نزلت في ظروف معينة (السيرة وعادات العرب وأحوال الناس حينها)، إذًا ففهمها يعين على عمق الفهم، بل إن بعض الآيات لا بد مِن معرفة سبب نزولها لفهمها[1].

(4) اللغة والبلاغة: لأن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، فقد استعمل معانيَ العرب وأساليبهم في الكلام والإفهام. ويدخل تحتها جوانب عديدة مِن لسان وصرف ونحو وبلاغة.

(5) اجتهادات السابقين: وأول هؤلاء رتبة الصحابةُ، ويليهم التابعون... ولابد من الاطلاع على تلك الاجتهادات للاستفادة منها، والبناء عليها.

(6) نتائج العلوم وثقافة العصر: لأن القرآن كلام الله، والكون خلق الله، فقد صدر الاثنان مِن صاحب الخلق والأمر، كما أنّ الله قد أنزل القرآن ليَعرِف الإنسان كيف يتعامل مع الخلق. إذاً ففهم الكون مفيد جدا في فهم القرآن، وفي ذلك يقول تعالى: [سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ] [فصلت: 53].

(7) العلم اللدني: وهو موهبة مِن الله يهبها مَن يشاء مِن عباده، فيجري على لسانه اجتهادات جديدة في فهم القرآن، وقوامه التقوى والاجتهاد في معرفة مقاصد المولى تعالى من وحيه[2].

3 .2. درجات فهم القرآن ولوازمها:

يمكن حصر درجات فهم القرآن في ثلاث درجات هي درجة العالم، وطالب العلم، وعامة الناس:

3. 2. 1. العالم: ووجوده مهم لاستمرار الاجتهاد في التفسير، ولتكوين الخلائف، ولتوجيه العامة وتقديم الفهم المناسب لآيات القرآن الكريم، وتصويب الأخطاء.

وله مواصفات أهمها: أنه له آلات التفسير، فيعرف تلك الأسس وتفاصيلها، إضافة إلى تمرسه في إعمالها.

وعلى العالم في مجال فهم القرآن الكريم واجبات أهمها:

- تفسير القرآن الكريم، بإعمال تلك القواعد في الكشف عن معاني القرآن والإبانة عن مقاصده، ويندرج في هذا المجال الترجيح بين أقوال المفسرين، وتجديد الاجتهاد في تفسير بعض الآيات، بما تحصّل لديه من معارف.

وهذا ما يُؤَهِّل العالم للتفسير، دون أن يعني أن المفسر فوق الخطأ؛ فقد يخطئ في اجتهاده، ولكنه لسلوكه المنهج فإنه يؤجر على اجتهاده، وإذا أخطأ فإنه سيكتشف ذلك ولو بعد حين، لأنه يملك معيار التقويم للاجتهاد وهو المنهج. إضافة إلى أن الخطأ المتوقَّع منه لا يُقَارن أبدا بخطأ الإنسان العامي الذي لا يُعمِل قاعدة ولا يلحظ ضابطاً.

- تعليم الآخرين ودعوتهم إلى هدي الله تعالى، ببيان معاني القرآن الكريم ومقاصده، بما يوفر لغيره نصيبه مِن تدبر القرآن بتيسير التفسير في أي مجتمع، سواء كان تفسيره شفهيا في حلقات ودروس تصوّب للناس فهومهم، وتقرّب إليهم البعيد،

---

[1] انظر: السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، **الإتقان في علوم القرآن**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1394هـ/1974م، ج1، ص82-83.

[2] قد أشار السيوطي إلى هذه الأسس بعبارات مختلفة، انظر: **المصدر ذاته**، ج4، ص231-216.

وتكشف الغموض، وتزيل الاشتباه عن المعاني والمقاصد القرآنية، أو كان تفسيرا كتابيًا يدوِّن فيه اجتهاداته، وينشرها في عالم القراءة.

- مدارسة طلبة العلم في محاولاتهم الفهم؛ لتقويمها، ولتأهيلهم، وذلك ما يضمن الخَلَف مِن بعده، ويفعِّل الحركة العلمية في المجتمع والأمة، ويتطور بذلك العلمُ.

3. 2. 2. طالب العلم:

ولطالب العلم مواصفات أهمها: السير في طريق العلم، وذلك بإتقان آلات الطالب (التفكير والقراءة والكتابة والحوار) بما يؤهله للتعاطي مع العلوم والتمكن مِن تلقي المناهج. ويضاف إلى ذلك الدخولُ في عِلْمِ التفسير، فيفهم كيف يفسِّر العالمُ القرآنَ، وما هي قواعده التي يستعملها، أي المعرفة بمنهج التفسير.

لعل أبرز فارق بين طالب العلم وبين العالم هو التمرس في المنهج، وإتقان توظيفه استشكالا واستدلالا وتقويماً، ونقص هذا الجانب هو ما يجعل طلبة العلم أقرب للخطأ، ولن يتم كشف خطئه، ولا التدرب على المنهج وتلافي النقص إلا بإشراف العلماء.

وعلى طالب العلم في مجال فهم القرآن الكريم واجبات أهمها:

- تدبر كلام الله: بعدم الوقوف عند الفهم العام للآيات، بل يتدبَّر ويتعمق في المعاني، حسب مؤهلاته وقدراته، فما عنده من آلات تدفعه لمزيد التحقق بمنهج التفسير، والتدرب عليه، ولا يكون ذلك إلا بالتدبر.
- التدرب على تطبيق قواعد التفسير وأسسه: بملاحظة اجتهادات العلماء، ومتى يُعمِلون تلك القاعدة وما هي استثناءاتها، وكيف الجمع بين الأقوال، والترجيح بينها، وكيفية استحضار الضوابط...
- عرض اجتهاداته على العلماء ليصوبوه ويقوِّموه، حتى يتم صقل ملكته، ويصل إلى درجة الاجتهاد هو أيضا.
- نشرُ الفهم السليم للقرآن الكريم مما كشفه العلماء، وتيسيرُه للعامة، ووصلهم بالعلماء حتى تَسْلَم مرجعيهم.

3. 2. 3. عامة الناس:

وهم في الدرجة الثانية بالنظر إلى المنهج، فهم لا يعرفون المنهج بله أن يتقنوه، مما يجعل نظرهم في القرآن قاصرا، فقد يتوصل أحد عامة الناس إلى فهم آية قرآنية، ولكن ينقصه شيء مهم هو تحقُّقه مِن صحة فهمه. وهو وإن توصّل إلى المعنى الصحيح، فهل سيتوصل إليه كل مرة! فإذا ما تجاوز ذلك إلى نشر فهمه بين الناس فقد ارتكب خطئين: خطأ الفهم دون مصادقة، وخطأ النشر دون تحقّق.

وعلى عامة الناس واجبات أهمها:

- اعتماد الفهم العام للآيات: فهو الواجب الأول عليهم. والمقصود بالمعنى العام للآيات عدم الوقوف على معاني كل مفردة، وعلاقتها بالمفردات الأخرى في الجملة، وفي الآية، وبين الآيات، بل الاكتفاء بالمعنى العام للآيات. ومن شاء من عامة الناس

تجاوز هذا الحد الأدنى، فعليه أن يترقى في مستوى فهم القرآن إلى درجة طلبة العلم، فيتصف بصفاتهم، فتجب عليه واجباتهم ويسعه ما يسعهم[1].

- سؤال أهل العلم: والسؤال هو مهمة عامة الناس، ويكون ذلك بشهود حلقات العلماء في التفسير، أو الاطلاع على التفاسير المدونة.
- عرض فهومه على العلماء: للمصادقة عليها إن كان فهمه سليما، وتصويبه حين الخطأ.

الجدول 1: **مواصفات الأصناف الثلاثة**: يمكن أن نحصر تلك المواصفات واللوازم في الآتي:

	العالم	طالب العلم	عموم الناس
مواصفات	- لديه منهج التفسير - متمرس في إعمالها	- لديه آلات العلم - يعرف منهج التفسير	- الجهل بمنهج التفسير
واجبات	- تفسير القرآن - نشر فهم القرآن وتيسيره - مدارسة الطلبة وتقويمهم	- التدرب على تطبيق المنهج - مدارسة العلماء للتقويم - نشر التفسير وتوجيه العامة	- اعتماد الفهم العام للآيات - سؤال أهل العلم - عرض فهمه على أهل العلم

3. 3. نماذج تطبيقية لمستويات الفهم: وفيما يأتي نماذج تطبيقية لمستويات فهم القرآن الكريم.

- قوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى" [البقرة:178].
  - الفهم العام: حكم القصاص ومراعاة مساواة الإنسان في العبودية أو الحرية أو الجنس ذكرا أو أنثى
  - التدبر: التساوي في القصاص يمكن أن يعني أن المقتول إن كان عبدا فلا يقتص له من الحر، والأنثى فلا يقتص لها من الذكر ؟! فلا تساوي بل تفاوت! كما يمكن أن تعني ألا يطالب ولي المقتول بأكثر من الحر إن كان المقتول عبدا، أو أكثر من الأنثى إن كان المقتول أنثى، أو أكثر من الواحد إن المقتول واحدا.
  - التفسير: المعنى الثاني وهو المطالبة بأكثر من ذلك مراعاة لسمعة القبيلة هو المقصود في الآية وليس المقصود المعنى الأولى، لأن القصاص إنما يكون من القاتل للمقتول بغضّ النظر من درجة المقتول والقاتل[2].
- قوله تعالى: "وإن أطعتموهم إنكم لمشركون" [الأنعام:121].
  - الفهم العام: من أطاع المشركين في أكل ما لم يسم اسم الله عليه مشرك. وهو فهم خطأ

[1] هل يعدّ المختص في غير التفسير من عامة الناس؟ إذا طبق نفس المنهج فإن الجواب هو نعم! مع فارق هو أن المختص في غير التفسير له أهلية أن يكون طالب علم، فيحتاج حينها إلى معرفة القواعد حتى يفهم طريقة الاجتهاد، ثم يتمرس ليكون من درجة العلماء، وبعبارة موجزة: لكي يكون كذلك عليه أن يختص أيضا في مجال تفسير القرآن الكريم. وإن كان مستغن عن ذلك بالاستعانة بأهل الاختصاص.

[2] انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج2، ص34 وما بعدها.

- التدبر: هل طاعتهم في أكل ما لم يذكر اسم الله عليه هو الشرك؟ أو طاعتهم في استحلال ما لم يذكر اسم الله عليه؟
- التفسير: طاعة المشركين في استحلال أكل ما لم يذكر اسم الله عليه أي استحلال الميتة هو الشرك وليس أكل الميتة وحده[1].

- يقول عز وجل على لسان إبراهيم عليه السلام: "رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم" [إبراهيم:36]
  - الفهم العام: من تبع سيدنا إبراهيم فهو منه، ومن عصاه فإن الله غفور رحيم.
  - التدبر: هل يغفر الله لمن عصى سيدنا إبراهيم دون أن يتوب ويسلم؟ أو لابد أن يسلم فيتوب الله عليه؟
  - التفسير: الله يغفر لمن عصى سيدنا إبراهيم إن تاب، فالآية فيها تقدير: ومن عصاني فإنك غفور رحيم لمن تاب، بقاعدة الجمع بين الآيات، أو بمعنى أن الله قادر لكمال إرادته أن يغفر له[2].

فالملاحظ على الأمثلة عمومية الفهم العام، وقصوره في بعض الأحان ما يحتاج إلى تصويب العلماء وبيان المعنى الصحيح، ثم توجيه طلبة العلم في تحديد المعنى المقصود بتتبع احتمالات المعاني وترجيح المعنى المقصود، بإعمال قواعد التفسير.

هذا عن المستويات وما يلزمها، ولعل من حسن القول إبراز التكامل بين تلك المستويات بصفة عامة.

3. 4. تكامل الناس في فهم القرآن الكريم:

إذا وجب على العلماء التفسير وتيسير فهم القرآن للناس، بإيجاد حلقات علم في كل مجتمع؛ يجد المرء فيها ضالته، ويتفهم فيها كلام ربه، فقد تَحَقَّق واجب عامة الناس مِن تدبر القرآن الكريم؛ سواء بالاستفادة، أو الاستفسار حين الشك، أو السؤال حين الاستفهام، فكل ذلك محقِّق للمهمة. فعلى الناس السؤال وعلى العلماء تيسير التفسير. وإن عنّ لهم فهم عرضوه على أهل العلم للمصادقة عليه أو تصويبه.

وإذا كان القرآن الكريم لا تنقضي عجائبه فلزم على أهل العلم الكشف عن تلك الكنوز، ولا يقوم بذلك أحسن قيام إلا العالم بالتفسير، فيجتهد وحَقَّ له الاجتهاد؛ لِما تمكن مِن منهج، بل يلزَمُه الاجتهاد لأداء حق القرآن الذي أُنزل هداية للناس، وارتباط الهداية بالكشف عنها والبيان.

وتبقى درجة بين العامة والعلماء وهي درجة طلبة العلم، وهؤلاء كما لَزِمَ عامةَ الناس الفهمُ العام للآيات، فطلبة العلم يلزمهم أكثرُ مِن ذلك، يلزمهم الغوص في المعاني تحت إشراف العلماء، مما يُعِينهم على اكتشاف المنهج ومحاولة فهم آلياته، وليؤهلهم لإتقان المنهج وامتلاك الملكة التي تجعل منهم خلفًا للعلماء.

وبقدر تعليم العلماء ونشرهم للتفسير، مع كثرة أسئلة الناس؛ تزداد معرفة الإنسان العامي بآيات القرآن، ويتعمق فهمه. حتى يصل إلى درجة أنه قد يعرف الكثير الكثير مِن معاني القرآن؛ كأنه عَالِم بالتفسير، لولا أنه ليس بعالم، ذلك لأنه لا يعرف كيفية إثمار

---

[1] انظر: أبو السعود، محمد بن مصطفى العمادي، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دط، دت، ج3، ص180.

[2] انظر: البيضاوي، عبد الله بن عمر، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1418هـ. ج3، ص200.

تلك المعارف مِن نصوص الوحي. وزيادة معرفته بمعاني القرآن تزيده قرباً إلى الهدي الرباني، ويتحقق بذلك المقصدُ مِن تدبر القرآن الكريم، وإن لم يصل إلى تلك المعاني بنفسه.

وبالمقابل، فحين تفتح الدعوة لكل الناس بفهم القرآن ومحاولة ذلك كل حسب جهده وطريقته، فكيف يكون المآل ؟ إن ذلك نذير بأخطاء كثيرة في فهم آيات القرآن الكريم[1]، وقد يتخذ الإنسان العامي فهمه هو الحَكَم على الآخرين، فكلّ مَن خالفه في فهمه فقد خالف القرآن؛ إذ لا يُفَرِّق بين القرآن ودلالاته وبين محاولته للفهم، فأين مقياس الصواب والخطأ في الفهم ؟ وماذا بعد ذلك ؟

بل إن الحاجة إلى علماء التفسير ستغيب، لأن للجميع القدرة على فهم القرآن، فإذا كان كل ما أمكن فهمه مِن القرآن فهو مُحكَم، فلا حاجة إلى تجشّم الطلب. وإذا كان ما ليس مفهومًا هو من المتشابه، وقد يكون مما حُظِر علمه، فما قيمة العودة إلى العلماء ؟ وهل سيرغب طلبة العلم في التأهل ؟ ولا يُحتَاج إلى تأهيل أصلا ! وبالتالي هل سيكون ثمة خَلَف لعلماء الأمة ؟

وأكثر مِن ذلك، سيجد العلماء أنفسهم مشغولين –وقتا طويلا- بتصويب أخطاء العامة في الفهم، وكلُّ يوم يَنتجُ خطأ يحتاج إلى تصويب، ومتابعة لئلا يتخذه العامي حقا لا محيد عنه، فمتى تنتهي هذه العملية الثقيلة ؟ ومتى يشتغل العلماء بالبناء ويصلون إلى الكشف عن كنوز القرآن للناس ؟!

هذه بعض المشكلات الناتجة عن القول بلزوم أن يتدبر الجميع القرآنَ بمعنى الوصول إلى فهم معاني القرآن الكريم دون ترشيد هذه العملية، فيصير العامي مدفوعا إلى معرفة المعاني بلا منهج ولا هدى ولا سلطان مبين.

4. خاتمة:

لعل من أبرز نتائج البحث ما يأتي:

1- فهم القرآن الكريم مهمة يشترك فيها الجميع، قياما بواجب تدبر القرآن الذي أشارت إليه آيات القرآن، ولتحقيق ما أُنْزِل القرآن لأجله.

2- لا يمكن أن يمضيَ فهم القرآن الكريم دون منهج يضبط الفهم ويقوّمه، ويُجنِّب الناسَ الفهم الخطأ للقرآن الكريم.

3- النموذج المقترح لأداء ذلك بمنهج هو بقسمة الناس ثلاثة مستويات: عالم متقن للمنهج يفسر وييسر المعاني ويؤهل الآخرين ليكونوا في مصافِّه، وطالب عالم يعرف المنهج وينقصه الإتقان، فهو مظنة الخطأ، مما يلزمه الارتباط بالعلماء إلى أن يتأهل في المنهج، وعامة الناس ممن لا يعرف المنهج بله أن يتقنه، وعليهم السؤال، وواجبهم الأول هو الفهم العام لآيات القرآن.

4- بتكامل المستويات الثلاثة يمكن الوصول إلى تعامل سليم مع القرآن الكريم.

وقد انطلق هذا البحث من محاولة الجمع بين لزوم التدبر تحقيقا لمقاصد القرآن، وبين حاجة القرآن إلى منهج للفهم والتفسير، بعد أن تطرّف طرف فظن أن فهم القرآن محصور في العلماء فقط، وتطرّف أخر فعمّم القرآن لكل الناس بلا ضابط ولا منهج.

---

[1] والأمثلة على ذلك كثيرا، ابتداء بخطأ الخوارج في بدايات التاريخ الإسلامي، وانتهاء بجماعات التطرف في العصر الحديث، ولا يكفي حسن القصد عذرا في التعامل مع القرآن وتنزيل نتائج الفهم في حياة الناس ومصائرهم!

ومن **توصيات** البحث:

أ- نشر حلقات التفسير في كل مجتمع، وتشجيع العلماء لتيسير معاني القرآن للناس أداء لهذا الواجب، ومن هؤلاء العلماء أساتذة التفسير في الجامعة، بما يربط الجامعة بالمجتمع.

ب- الاعتناء بتأهيل طلبة العلم في التفسير، بدفعهم إلى التدبر، مع التحقق بالمنهج، تحت إشراف أساتذة التفسير، فطلبة العلم هم خير مُعِين على أداء مهمة التدبر ونشر معاني القرآن في المجتمع.

ج- عدم الاكتفاء بحصيلة التفسير الموجودة في المكتبات، بل دفع العلماء إلى التفسير في شكل ندوات وحلقات علمية وبحوث علمية محكمة، ومؤتمرات تجمع أهل الاختصاص لمزيد التحقيق في العلم.

والله الموفق والعاصم من الزلل، إنه سميع قريب مجيب، والحمد لله رب العالمين.

قائمة المراجع:

1. الآلوسي، محمود شكري، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، دار إحياء التراث العربي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، دط، دت).
2. بدوي، عبد الرحمن، **مناهج البحث العلمي**، وكالة المطبوعات، (الكويت: وكالة المطبوعات، ط3، 1977م)
3. البقاعي، إبراهيم بن عمر، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، تحقيق عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، (بيروت: دار الكتب العلمية، دط، 1415هـ/1995م).
4. البيضاوي، عبد الله بن عمر، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط1، 1418هـ).
5. الترمذي، محمد بن عيسى، **جامع الترمذي**، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، (بيروت: دار الكتب العلمية، دط، 1998م)
6. الجديع، عبد الله، **المقدمات الأساسية في علوم القرآن**، دار الحكمة، (لندن: دار الحكمة، دط، 2003م)
7. الجرجاني، علي بن محمد الشريف، **التعريفات**، دار الكتب العلمية، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1983م).
8. أبو حيان، محمد بن يوسف، **البحر المحيط**، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1422هـ/ 2001م).
9. الدسوقي، محمود إبراهيم، منهج البحث في العلوم الإسلامية، (: ط1، 1984م).
10. الراغب، الحسين بن محمد الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، (بيروت: دار المعرفة، دت، دط).
11. الزمخشري، محمود بن عمر، **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، دط، دت).
12. أبو السعود، محمد بن مصطفى العمادي، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**، دار إحياء التراث العربي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، دط، دت).

13. السيد أحمد، عزمي طه، **مناهج البحث الحديث**، جامعة آل البيت، (الأردن: منشورات جامعة آل البيت، دط، 2008م)
14. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، **الإتقان في علوم القرآن**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، دط، 1394هـ/1974م).
15. الشعراوي، محمد متولي، **تفسير الشعراوي**، مطابع أخبار اليوم، (مصر: مطابع أخبار اليوم، دط، دت)
16. الشنقيطي، محمد الأمين، **أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن**، دار الفكر، (بيروت: دار الفكر، دط، 1415هـ/ 1995م)
17. الصابوني، محمد علي، **التبيان في علوم القرآن**، دار الكتب، (دم: دار الكتب، ط1، 1985م).
18. الطبري، محمد بن جرير، **جامع البيان في تأويل القرآن**، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، (لبنان: مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ/2000م).
19. الطيار، مساعد، **مفهوم التفسير والتأويل والتدبر**، دار ابن الجوزي، (الرياض: دار ابن الجوزي، ط2، 1427هـ).
20. الطيار، مساعد، **مقالات في علوم القرآن وأصول التفسير**، مركز تفسير للدراسات القرآنية، (الرياض: مركز تفسير للدراسات القرآنية، دط، 1435هـ).
21. ابن عاشور، محمد الطاهر، **التحرير والتنوير**، مؤسسة التاريخ العربي، (بيروت: مؤسسة التاريخ العربي، ط1، 1420هـ / 2000م)
22. ابن عطية، عبد الحق بن غالب، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1413هـ /1993م).
23. ابن فارس، أحمد، **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، (بيروت: دار الفكر، دط، 1979م)
24. القرضاوي، يوسف، في كتابه: **كيف نتعامل مع القرآن الكريم**، مؤسسة الرسالة، (لبنان: مؤسسة الرسالة، دط، دت).
25. القرطبي، محمد بن أحمد، **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، (الرياض: دار عالم الكتب، دط، 1423هـ/2003م)
26. قطب، سيد، **في ظلال القرآن**، دار الشروق، (القاهرة: دار الشروق، ط17، 1995م).
27. الكافيجي، محمد بن سليمان، **التيسير في قواعد علم التفسير**، تحقيق ناصر بن محمد المطرودي، دار القلم، (دمشق: دار القلم، ط1، 1410هـ).
28. ابن كثير، إسماعيل بن عمر، **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، (المدنية: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، 1420هـ/1999م).
29. الماوردي، علي بن محمد، **النكت والعيون**، تحقيق السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، (بيروت: دار الكتب العلمية، دط، دت).
30. ابن منظور، محمد بن مكرم، **لسان العرب**، دار صادر، (بيروت: دار صادر، ط1، 1956م).
31. موجاري، جميلة، **دور التدبر في فهم المقصود من الخطاب القرآني**، مجلة المعيار، مج 18، ع35، 2016.